

ذكريات الحرب الكبرى الأولى

كانت الحرب الكبرى في ١٩١٤ متوقعة ، وكان أساسها المباراة العظيمة بين الانجليز والألمان . فانهما كانا على تقدم صناعي عظيم يحتاج إلى المستعمرات والمواد الخام والأسواق . وكان الانجليز حاصلين على كل هذا ، ولم يكن الألمان حاصلين على شيء يؤبه به . فكانت الصناعات الانجليزية تمتاز بالمواد الخام الرخيصة التي تحصل عليها من الهند وجاوة ومصر وغيرها ، فتستطيع بيع مصنوعاتها بأثمان منخفضة . ثم في الوقت نفسه كانت تجد التفضيل في الأسواق في هذه الأقطار وغيرها ، وإذا لم يكن هذا التفضيل بالامتياز الجمركي السريع ، الذي يجعل مصنوعاتها تدخل هذه الأقطار بسهولة ، فانه يكون بالأعجب أخرى تؤدي إلى التفضيل ، ويقوم بها موظفو المستعمرات لخدمة طبقة الصناعيين والتجارين في بريطانيا .

ولم ينطق الألمان هذه الحال ، أي أن يشرى الانجليز بأوضاع اقتصادية عالمية غير عادلة ، ويبقوا هم في تخلف اقتصادي . وشيء من هذه الحال كان أيضاً بارزاً في مقدمات الحرب الكبرى الثانية التي دعت اليابان فيها إلى « الرخاء المشترك » . وكانت الشرارة الأولى للحرب قتل أحد الأمراء من أسرة الامبراطور فرانز جوزيف ، وكان إمبراطوراً هرمًا على إمبراطورية همة ضعيفة . ولم تمض إلا أيام حتى كان العالم كله مشتعلًا ، وأخذ الجمهور في مصر على دهشة .

وكنت أصدر مجلة المستقبل في القاهرة . فدعيت إلى تعطيلها في إدارة المطبوعات . ثم شرع الانجليز في اعتقال من يتوجسون في اتجاهاته . ولبثت بعض الشهور وأنا أعمل مع مي في جريدتها ، أي جريدة والدها ، المحروسة . ولكنني سئمت الرقابة التي لم تكن تسمح بنشر خبر صحيح إلا بعد أن تريفه حتى تخرج الهزيمة التي كانت تقع بالحلفاء كأنها انتصار رائع لهم .

ورحلت إلى الريف ، ورأيت كيف كان يسلط الانجليز علينا الموظفين المصريين من مأمورين ومديرين وحكمدارين وشرطة لخطف محمولاتنا . وكانت الجمال

والخمير بل الرجال يخطفون أيضاً كما لو كانوا في قرية زنجية على خط الاستواء قد كبسها النحاسون لخطف سكانها ويبيعهم في سوق الرقيق . وكان المنظر يهين النفس كما يفتت القلب . فكان الرجل يربط بالحبل الغليظ من وسطه ، وخلفه أمثاله ، ويسيرون على هذه الحال صفّاً إلى أن يبلغوا « المركز » فيحبسون في غرفة المتهمين ثم يرحلون إلى فلسطين . وكنت أنجح أحياناً بالرشوة في استخلاص بعض هؤلاء المساكين . وذات مرة سمعت صراخاً ودخلت على نسوة في فزع ونحيب . وعرفت أن ثلاثة ممن يزرعون أرضنا ألقى القبض عليهم وهم يحترثون في الحقل . فخرجت ووجدتهم مربوطين بالحبال بحراسة أحد الشرطة . أما سائر الشرطة فقد تركوهم كي يغزوا قرية أخرى . واستطعت بمساومات مع الشرطة أن أحصل على الافراج عنهم . ولكني لم أكن أنجح كل مرة ؛ ففي ذات يوم قصدت إلى المأمور في الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من الفلاحين . فتأملني ثم قال : أنا عايز أرحلك أنت لفلسطين . فتركته إذ لم تكن الظروف وقتئذ تاذن بالتحدى . وفي تلك السنوات السود أثرى كثير من العمد ثراء فاحشاً ؛ فقد فرضوا ضرائب على جميع الشباب من سن العشرين إلى الخمسين كل على مقدار ما يملك . فهذا يؤدي خمسة جنيهات ، وذاك عشرة جنيهات ، حتى يعفيهم من الاعتقال ويعثمهم إلى فلسطين . وعرفت عمدة كان يملك ستة أفدنة فقط جمع نحو خمسة آلاف جنيه بهذه الطرق . وكان الفلاحون يجوعون كي يجمعوا هذه الغرامة ويؤدوها . وقد استمتعت بعد ذلك بالشهامة عندما رأيت هذا الشقي وقد قبض عليه الانجليز بعيداً عن قريته وأجبروه على النزول في ترعة يبحث عن أحد قضبان الخط الحديدي لشركة الدلتا . فقد فوجئ وهو على حمار قاصداً إلى الزقازيق فأنزله وضربوه وأجبروه على العمل في ترميم الخط الحديدي الذي كان الفلاحون قد نزعوه في ١٩١٩ . وعرفت بعد ذلك أنه تورط في معاركسات ومشاجرات بينه وبين الأهلين فضاع كل ما جمعه ؛ فقد تعقبوه بالشكايات جملة سنوات وتمسكوا عليه بمخالفات خطيرة جعلته ينفق في الرشوة وأجور المحامين كل ما جمعه من هؤلاء الفلاحين المساكين .

وكان معظم النقل في الحرب الكبرى الأولى على الخيول الاسترالية ، وكانت ضخمة يعلف الحصان منها بضعف ما يعلف به حصان من خيولنا . ولذلك كان التبن والشعير يخطفان من الريف . وقد قام عمالنا المصريون ، وهم من الفلاحين ،

بخدمة الحملة الانجليزية في فلسطين . وكانوا يعدون بعشرات الألوف مات أكثرهم وعنى بعضهم . ومع ذلك عندما انتهت الحرب واشتعلت الثورة في مصر في سنة ١٩١٩ وقف السفير البريطاني في واشنطنون ينقص من قيمة خدمتنا في الحرب كي يحول دون العطف الأمريكي على قضية استقلالنا ، فقال إن جميع من قتلوا في الحرب من المصريين لا يزيدون على ثلاثة أشخاص .

وكثير من الفلاحين يتركون الأرض إلى المدن لما يلاقون من قسوة المالكين الذين يعصرونهم بالايحارات والمحاسبات . ولكن الريف لا يزال معموراً بل مزدحماً بالفلاحين على الرغم من جميع ما يلقي هؤلاء فيه من مصاعب . وظنى أن بعض السبب لذلك أن في الأرض فتنة تسحر الفلاح وتربطه بها مهما قل كسبه منها . فانه يستيقظ قبل الشروق ، ويخرج إلى حقله ترافقه بقرته وحماره وعنزته أو نعجته . وهو يحس برفقة هذه الحيوانات ويمجد في هذه الرقعة لذة تسمو على الاعتبار المالية . وهو يتشمم الأرض عقب حرثها حين تنفج التربة الهواء بروائحها التي توحى الرخاء والبركة . بل هو يبكر أحياناً كي يتحقق من النمو الجديد في الذرة أو القمح . وفي الشتاء حين يكسو الندى البرسيم تبدو الدنيا في بهاء لا يعدل الانسان به أى جمال آخر .

وقد وجدت هذه الفتنة في السنوات التي قضيتها في الريف مدة الحرب . وكنت كثيراً ما أتأمل الفلاحين وهم يكندون من الفجر إلى الغروب ، ثم يعودون مرحين يتغنون بالمواويل خلف البهائم إلى بيوتهم . وهذا الحب للأرض وللنبات وللحيوان يلصق الفلاح بالريف ويجعله يرضى بالمعيشة الضئيلة من حيث الطعام واللباس والسكن ، بل يرضى بقسوة الايجارات والمحاسبات ، بل إن الفلاحة أيضاً تجذب من الاهتمامات بتربية الدجاج والبط والحمام ما يجعلها مفتونة بهذه الطيور فتعنى بها كما لو كانت تؤدي هواية لذيذة . وكثيراً ما رأيت إحدى الفلاحات تخاطب البقرة التي عزفت لسبب ما عن الطعام بقولها : يا حبيبتى ، يا أختى ، ثم تمسحها بيديها كما لو كانت طفلاً تدله .

ثم يجب ألا ننسى القمر في الريف؛ فانه يسكب سحره على كل شئ ، وأبناء المدن الذين يرون القمر من خلال المباني لا يعرفون فتنة هذا الكوكب في الريف . وغيرى يعدّ الريف منفى ، ولكنى أعتقد أن أحسن سنى حياتى هى تلك التي

قضيتها في الريف . فقد أتاح لي الدراسة الجديدة كما أتاح لي الاستمتاع بالطبيعة . ولم يكن يمر على يوم دون أن أستيقظ في الساعة الرابعة أو الخامسة من الصباح وأسير في الحقول وهي مبللة بالندى في هدوء الطبيعة الرخيم أنتظر بزوغ الشمس فأحييها وأأملها كأني في صلاة . وهناك آلاف من الناس لم يعرفوا قط هذه الصلاة ولم يحسوا هذا الاحساس الديني في الاتصال بالطبيعة في خلوة الحقول التي تنمو كل نهار بحياة جديدة . والسائر في الحقول في هذه الساعات الأولى من النهار تغمره نشوة حقيقية حتى ليجد خفة في نفسه لا تختلف من تلك التي يحدثها الكحول ، ولكن دون تخدير للوجدان .

والريف يومهم التجزؤ والانفصال . هذا نبات ، وهذا حيوان ، وهذا مسكن ، وهذا حقل ، بل هذا إنسان وهذا بهيم . ولكن التأمل يجد الترابط والتكافل ، كأن كل هؤلاء وحدة حية .

وقد كان داروين يقول على سبيل الفكاهة إنه يستطيع أن يقدر عدد العوانس في قرية (في إنجلترا) بملاحظة حقول البرسيم المحيطة . فإذا كان البرسيم مزدهراً ناجحاً فإنه يدل على أن العوانس كثيرات في القرية . ذلك لأنهن يربين القلط . والقطط تأكل الفئران . والفئران تأكل النحل . والنحل هو الذي ينقل إلى البرسيم لقاحه من زهرة إلى زهرة . . . فإذا قلت العوانس قلت القطط وزادت الفئران ، وقل النحل ثم قل ازدهار البرسيم .

ونحن نرى هنا بالطبع فكاهة . ولكن لها مغزاها ، وهو أن النبات والحيوان يعيشان في تضامن سميوزي أي إن كلا منهما يخدم الآخر ؛ فحياة هذا تتوقف على حياة ذاك . وقد كنت أبتهج بالتأمل في الريف لهذه الروابط بين النبات والحيوان . وكثيراً ما كنت آسف وأنصح بشأن البومة ؛ فإن الفلاحين قد ورثوا عقائد غيبية عنها إذ يقتلونهم لأنهم يتشاءمون منها ، مع أنها تأكل الفئران التي تقتات بذراهم وخبزهم . ثم إن تكاثر الفئران يؤدي إلى تكاثر الثعابين التي تقتات بها . بل إن للذئب والثعالب في ريفنا قيمتها السميوزية أيضاً لأنها تنظف القنوات من الرم .

وقد كنت ، وما زلت إلى الآن ، أجد لذة واهتماماً في أن أتابع فراشة بل أجرى وراءها كالصبي حتى أمسكها وأأملها وأبحث عن أعضائها ، ثم أطلقها . وسلوكي هذا كثيراً ما كان يبعث الابتسامات بين الفلاحين الذين يعتقدون

أن مثل هذا العيث لا يتفق والوقار . وما زلت أحلم بأن أقصى السنة الأخيرة من عمرى فى الريف .

وريفنا الذى صنعته الطبيعة ، ريف الحقول والزهر والشجر والطيور والفراش ، هذا الريف يتلأأ بلجمال ويبعث الحياة تنبض فى عروقنا حين نشرب من هوائه ونشم منه خضرة البرسيم أو الذرة التى تعمّر نفوسنا . ولكن الريف الذى صنعه المجتمع المصرى ، ريف المساكن الكالحة المبنية من الطين الجفف ، ريف الايجارات والمحاسبات والحرمان للفلاحين ، هذا الريف لا يوحى إلينا الصلاة بل يوحى الغضب واللعة وكراهة الحياة فى مصر . فان المالك يعامل أحياناً الفلاحين بروج تجارى لا يبالى هل هو يمجوع أو يمرض بسبب الايجارات العالية التى يفرضها عليه .

وأذكر أن أحد الفلاحين فى عزبة غير بعيدة قدم إلى ذات صباح فى ١٩١٥ وعرض علىّ أن ينتقل إلى عزبتنا ، فقبلت . وقبيل الغروب حضر هو وزوجته التى كانت تحمل ابنتها على صدرها ، وكان هو يحمل جرة بها « مخلل » . وكانت هذه الجرة كل ما يملك من متاع فى الدنيا . فقد حاسبه صاحب الأرض وأخرجه خالصاً لا عليه ولا له . وفاحت رائحة كريهة من الجرة . فكشف عنها أحد الحاضرين وصب منها على الأرض ، وما زال يصب حتى فرغت . وكان هذا « المخلل » الذى ذكره هذا المسكين لا يتجاوز هذا السائل الكريه يبلل به هو وزوجته خبز الذرة ثم يبلعانه . وكان الهزال واضحاً فى الثلاثة . وكان أوضح فى الطفلة التى كانت تتعلق بصدر أمها كأنها خرقة بالية معلقة . وقد ماتت هذه الطفلة بعد نحو أسبوعين .

وقص علىّ على ، وهذا اسمه ، مأساته . فقد دخل تلك العزبة قبل ست سنوات ومعه بقرة وحمار ، وكان لزوجته صندوق ولحاف وحصير ومخدة . ولكن المالك كان « يحاسبه » كل عام ، فيخرج مدينياً . وباع بقرته وحماره فى تسديد الدين . ثم باعت زوجته كل أمتعة البيت كى تشتري الذرة .

وذات مساء أقبلت على العزبة فوجدت علياً مبطوحاً على بطنه وهو يصرخ صرخات عالية . وفزعنت عندما رأيته على هذه الحال ، وظننت أنه قد تسمم أو أن وباء الكوليرا قد نقل إلى مصر مع بعض الجنود الهنود . ولكن المسكين سكت خجلاً عندما رآنى . وذهبت به فى اليوم التالى إلى الزقازيق لأحد الأطباء

فقال إنه مريض بالبلاجرا ، وهو مرض ينشأ من النقص الغذائى ، فذكرت الحجة التى جاء بها وصبينا منها المخلل على الأرض
وتفاقم حاله ، وظهرت عليه أمارات البلاهة . وتركته زوجته وتزوجت غيره . ثم حدث حريق فى بهنباي بعد ذلك بسنين ، وكان هو فى أحد أزقتها . فخانه ذكاؤه الذى تقهقر من البلاجرا فعجز عن التخلص من النار ومات بالحريق . وفى الريف المصرى الجميل ، آلاف من هذه الماسى التى تعود إلى الروح التجارى فى محاسبة الفلاحين وزيادة الايجارات حتى يموتوا فى بلاء لقللة الطعام . وأغلب المسئولين عن هذه القسوة هم من المالكين الذين يعيشون فى المدن ويستغلون غايبا أرضهم ، فلا يستطيع وكلاؤهم التسامح ، ولا نقول الرحمة ، مع المأزومين والفقراء ، بل أحيانا يبرهن هؤلاء الوكلاء على إخلاصهم واجتهادهم للمالكين بزيادة الايجارات على هؤلاء المساكين .

وكنا نقرأ الأخبار كما يحب الانجليز أن نفهمها . ولذلك كانت الرقابة صارمة شاملة . فقد اشتركت فى بعض المجلات الأمريكية كى أصل عن طريقها إلى الأخبار الصحيحة . فكانت إما تمنع من الوصول إلى وإما تقص أوراقها التى تحمل أخباراً غير ملائمة للانجليز . ولكن حتى بين المحررين المصريين من كان يستطيع أن يروى الخبر بحيث يحوز ظاهره على الرقيب ويدرك قارئه ما بين سطوره ، مثل :

« جاء فى التلغرافات أن هزيمة الألمان عند فردناش كانت فادحة ؛ إذ تقدموا بعد جهد كبير عشرة كيلومترات . ولكن ارتد عليهم الجنود الانجليز والفرنسيون فانتزعوا منهم طاحوناً . وقد أحدث هذا المنظر فرحاً عاماً فى قيادة الحلفاء . »

وكان الرقيب يتخذ بهذه اللهجة وينسى المعانى الواضحة . وكان إعجاب الجمهور بألمانيا يفوق الوصف . وبعض هذا كان يعود بالطبع إلى الشبهة بالانجليز المحتلين لوطننا . وكنا نهجس أحيانا بأمل الاستقلال إذا انهزمت بريطانيا أو على الأقل لم تنتصر . وكان هذا الأمل قوياً فى بداية الحرب وبقي إلى أن دخلت أمريكا فى صف الحلفاء . ولم تكن الطائرات عنصراً خطيراً فى الحرب الكبرى الأولى . ولم تزرنا فيها غير طائرتين : الأولى ألقت قنبلة بالقرب

من البنك الأهلي . والثانية ألقت قنبلة في حي الفجالة ، وكان التلف صغيراً . وأيضاً أرسلت ألمانيا بلوناً عبر جونا ، ذهاباً وإياباً ، من أوروبا إلى المستعمرة الألمانية في أفريقيا الشرقية . ولم يلق أية معارضة من الانجليز . وكان على ارتفاع بعيد حتى لم يسمع أحد بأزيز موطراته .

وقد كانت براعة الألمان في للقتال عظيمة ، ولكن إخفاقهم في السياسة كان عظيماً أيضاً ؛ إذ لم يستطيعوا أن يتوقعوا انضمام الأمريكيين إلى أعدائهم . ولذلك صحت كلمة لويد جورج رئيس الوزارة الانجليزية عندما قال : « الألمان يكسبون المعارك الآن . ولكننا نحن سنكسب الحرب » .

وكان تشرشل بطل الحرب الكبرى الثانية بطلاً أيضاً في الحرب الكبرى الأولى . فقد كان يتهم الألمان بأنهم يصنعون الصابون من جثث القتلى أي يستخرجون الشحم من هذه الجثث ويصنعون منه الصابون . وقال أيضاً إن الألمان يبعثون جنودهم إلى المدن لتلقيح النسوة بلا زواج . . . وكانت هذه التهم بالطبع غير صحيحة . ومما قام به تشرشل في تلك الحرب أنه زيف ملايين النقود الورقية وبعث بها عن طريق سويسرا إلى ألمانيا حيث أفسد قيمة النقد الألماني . وتشرشل أيضاً هو المسئول عن الحصار الذي ضربه الانجليز على ألمانيا أحد عشر شهراً بعد إعلان الهدنة . فلم يكن يدخل ألمانيا شيء من الأغذية التي يحتاج إليها السكان ، وكانوا قد بلغوا حالاً بشعة من القحط . وقد عم الكساح أطفالهم لهذا الحصار .

وارتفعت الأسعار والأثمان إلى أربعة أضعاف بل خمسة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب . ولكن الرخاء كان عاماً ، لأن الانجليز بعد أن كانوا قد حددوا أثمان القطن في الستين الأوليين من الحرب تركوها حتى وصلت إلى ٤ و ٥ جنيهات للقطن . وكان أردب القمح يصل إلى ٧ أو ٨ جنيهات . وبقيت إيطاليا مدة طويلة وهي محايدة ، فكانت تموننا بكثير من المصنوعات . ولذلك لم يزد قطن ثمن البذلة على ٨ أو ٩ جنيهات . وأحدثت أثمان القطن المرتفعة هوساً عاماً في الريف حتى بلغ ثمن الفدان خمسمائة جنيه وإيجاره ٤ أو ٥ جنيهات . وبدهى أنه في مثل بلادنا حيث منع الانجليز تأسيس المصانع يجب أن ترتفع أثمان الأرض كلما زاد النقد المتداول ؛ إذ ليس هناك شيء آخر لاستغلال النقد الفائض . وأعرف اثنين شقيقتين في الريف كانا يتجران بالقطن في ١٩١٩ . وقد عههما الهوس بشأن

الزيادة المستمرة في أثمنه ، فصارا يجمعان منه ويكترزان حتى أصبحت ثروتهما كلها قطعاً لا يملكان شيئاً غيره . وكان يعرض عليهما الثمن العالى فيرفضان انتظاراً لارتفاع الثمن إلى خمسين أو مائة جنيه . وهما في هذه الآمال والأحلام وإذا بالثمن يهوى إلى أقل من أربعة جنيهات . فجن أحدهما ومات الآخر . وكثر الانتحار بين المضاربين على أثمان القطن في بورصة الاسكندرية . وفي أثناء هذه الحمى كانت الثروات الضخمة تتكون في أيام أو أسابيع ؛ فقد كان هناك تجار يشترون البيض أو الزبد أو يتجرون في البهائم ، فلما رأوا أن القطن يصعد إلى السماء أقبلوا عليه . فلم يكن يدور العام على أحدهم ، فيما بين ١٩١٨ و ١٩١٩ ، حتى كان يملك عشرين أو ثلاثين ألف جنيه مع أن كل ما كان يملك في بداية تجارته لم يكن يزيد على مئتي جنيه . وكان بعض هؤلاء يتناسى قديمه ويزعم أنه أصيل عريق في الثراء . وبعض آخر كان يتبجح بعصاميته وأنه جمع ثروته بذكائه ، أو كما كان يقول بذراعه . وكلاهما كان كاذباً ؛ لأن كل ما في الأمر أن الحظ رفعهم كما خفض غيرهم .

وكانت الحرب تسير في سلفية بطيئة خالية من الاقتحامات ، حتى كاد الناس يعدونها شيئاً مألوفاً ليس هناك ما يدعو إلى أن يتغير . فقد حفرت الخنادق ، من الجانبين ، في الاقليم الشمالى من فرنسا وجهزت بالأثاث والمصابيح الكهربائية ، ونظمت بينها المواصلات وحصنت بالأسمنت . وعم الجبهة الغربية ركود حتى صارت عبارة « كل شئ هادئ في الميدان الغربى » من العبارات الرمزية نقوها عندما لا نجد خبراً جديداً . وهنا الاختلاف بين الحرب الأولى والحرب الثانية في ١٩٣٩ . فان الغارات الجوية التى وصلت إلى مدننا جعلت هذه الثانية متحركة نشيطة بالمقارنة إلى سكون الأولى في الخنادق . وحاول الألمان أن يحركوا الجبهة الغربية بالهجوم الكبير على فردان . ولكنهم لم ينجحوا إلا في قتل عشرات الألوف من شباب الألمان والفرنسيين . والواقع أنه لم يكن في أخبار الحرب الأولى ، بعد الهجوم البرقى الألمانى الأول ، مما بقى أثره سوى ثلاثة أشياء هى دخول أمريكا في الحرب ، ثم انفصال روسيا بنظامها الجديد . وأخيراً شروط ولسن التى أحسنا بها كأننا نفتتح عصراً جديداً للسلام والعدل . وكان أهم ما في هذه الشروط حق تقرير الصير للشعوب التى يستعبدوها الاستعمار . وكانت « عصبة الأمم » إحدى ثمرات جهاد ولسن للسلام العام .

وقد ظهر ولسن بمذهبه الجديد كما لو كان نبيا . فان العالم الذى كان يئن من الامبراطورية البريطانية استروح نسيم منعشاً من هذه المبادئ الجديدة التى تقول بالمساواة والحرية وتقرير المصير . وعلمت هذه المبادئ بأذهاننا ، وصرنا نلهج بها ونفكر فيها نستطيع أن ننتفع به منها . وكان الساسة الانجليز يتململون من هذه المبادئ ولكنهم لم يستطيعوا منعها وإنكارها . وقد عادوا إلى مثل هذه الحال فى الحرب الكبرى الثانية عندما دعا الرئيس روزفلت إلى ميثاق الأطلنطى والحريات الأربع . فقد قبلوا مبادئ ولسن ثم مبادئ روزفلت بالقول مع نية نقضها بالفعل .

وكان ولسن يسير فى أوروبا ويتنقل من عاصمة إلى أخرى والجماهير تحتشد له وتتلقاه فى خشوع دينى ، حتى كان بعضهم يجثو على الركب على أرصفة المحطات . وكان الكاتب الفرنسى رومان رولان فى فرنسا التى غادرها احتجاجاً على الحرب . وقد كتب له خطاباً مفتوحاً قال فيه :

« أنت وحدك ، أيها الرئيس ، بين جميع أولئك الذين يحملون الواجب الرهيب لقيادة الأمم ، أنت وحدك تستمتع بسلطة روحية عالمية . فانك توحى الثقة العامة .

« أجب نداء هذه الآمال الحارة . وتناول هذه الأيدي التى بسطت إليك فاجعلها تصافح بعضها بعضاً . . . لأن الأمم إذا وجدت أنها خذلت فى هذه الوساطة فانها ستتفرق وتهيم فى فوضى ثم لا بد أن تتحطم فى الشطط . وعندئذ تنغمس الشعوب فى الدماء وتنكفى الأحزاب القديمة إلى رجعية دموية . . . أيها الوارث لجورج واشنطن وإبراهام لنكولن هلم إلى الراية وهى ليست راية حزب أو راية أمة وإنما هى راية العالم كله . وادع نواب الشعوب إلى برلمان البشرية . وارأس أنت هذا البرلمان بالسلطة الكاملة التى هى حقك لمالك من وجدان روحى سام ، ولما لأمريكا من مستقبل عظيم . تكلم . تكلم إلى الجميع . لأن العالم متعطش إلى صوت يعلو ويغمر تخوم الأمم وطبقاتها . كن الحكم للآثم الحرة ، حتى يعرفك المستقبل بأنك كنت المصالح . . . »

وليس شك فى أن مبادئ ولسون الأربعة عشر كانت من أكبر العوامل لثورتنا فى ١٩١٩ . وكان ولسون يحاول تغيير العالم ، وكان يؤمن برسالته فى جد وشرف . ولكن الرجل فى شرفه وسداجته لم يقدر عتو اللؤم والخسة

في الامبراطورين : كليمنصو رئيس وزارة فرنسا ، ولويد جورج رئيس وزارة بريطانيا . فقد سايره هذان الاثنان وأوهما بالمواقفة التامة على مبادئه كي يلقى بكل القوة الأمريكية في كفة الحلفاء ضد ألمانيا . حتى إذا تم الانتصار بفضل هذه القوة للانجليز والفرنسيين تنكر هذان الاثنان له . وكان من الفكاهات التي يتنادر بها الفرنسيون في حمق ورعونة قول كليمنصو وقت المفاوضات : إننى في مأزق ، فعن يمينى نابليون وعن يسارى المسيح . وهو يعنى بنابليون لويد جورج في زعمه أنه بطل ، وبالمسيح ولسون في زعمه أنه مصلح للعالم . ونحن الآن في ١٩٤٧ عندما نذكر هذه المفاوضات في ١٩١٩ ندرك أن ولسون لم يكن فقط الرجل البار بالبشر بل كان أيضاً الرجل البصير . أما هذان الاثنان فكانا أحمقين ، طربا للانتصار ورضيا بالنظر القصير . ولو أن مبادئ ولسون عمت العالم لما وقعت الحرب الكبرى الثانية .

وعلى كل حال ربح العالم من ولسون « عصابة الأمم » . وصحيح أن الامبراطورين من الانجليز والفرنسيين أفسدوها وأحالوها إلى هيئة ميتة عندما أيقنوا أنها تعارض المذهب الامبراطورى . ولكن هذه العصابة نهبت الأذهان ، وبقيت ماثلة أمام العالم نحو عشرين سنة وهى تشهد ، حتى بضعفها وفشلها ، على ضرورة إقامة منظمة عالمية تشرف على مصالح البشر . وقد كانت هى الباعث بعد ذلك لايحاد « منظمة الأمم المتحدة » و « مجلس الأمن » .

والحق أن هاتين الحريين قد أنجبتا بطلين عالميين فقط ، كلاهما أمريكى هما ولسون وروزفلت . وكلاهما دعا دعوة عالمية فعبر عن أسنى الأمانى وأنصر الآمال في السلام والعدل والشرف بين البشر . وفي العالم الآن ثقافة عالمية بشرية جديدة تفتخر . وعن قريب ستبلور . ثم سوف تتجوهر مبادئ عامة تؤمن بها جميعاً ونقول بها إن هذا الكوكب هو وطننا ، هو قريتنا التي يجب أن نجوب شوارعها ونعرف أزقتها ، في القطب الشمالى أو جبال هملايا في الصيف ، وفي صحارى أفريقيا أو آسيا في الشتاء . وطن عالمى جديد كبير يلغى هذا العالم المحزأ أو هذه الأوطان القديمة .

وكثير من الفضل في هذا الاتجاه يعزى إلى ولسون وروزفلت .